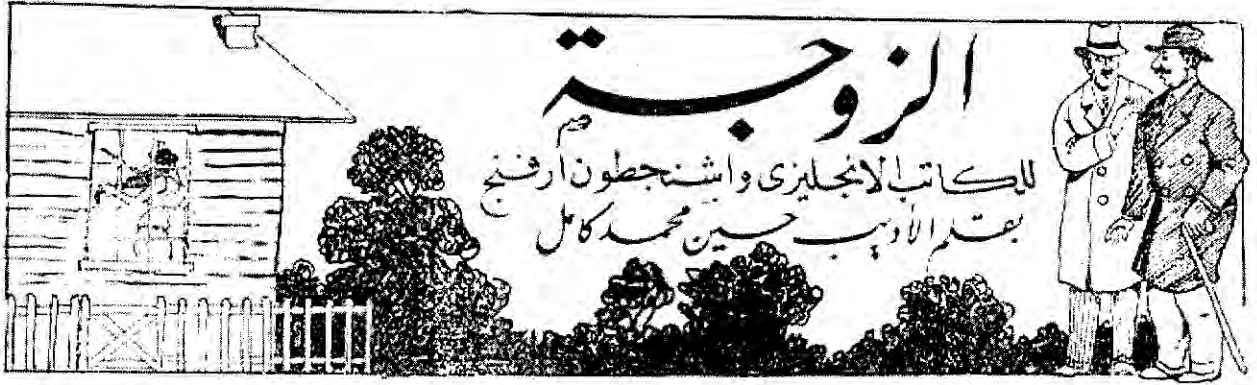




طالما أتيت لي أن أشاهد
بطولة المرأة وثباتها في تاقى
ضربات القدر معجبا باحتمالها
الضراء بمد السراء ، حتى
ليخيل المرء أن المحن التي تقل
عزيمة الرجل وتصدع أركان

« لأنفس من درر البحار ما يجده الرجل
من راحة بال ، وما ينعم به من خفي البهجة
في كنف حب المرأة ، فما قربت المنزل إلا
وملأت صدرى روائح النعيم ، فما أروح
ما يتردد في ظلال الزواج من أنفاس لها عير
ما أحلاه ، وما أطيّب البنفسج في حياضه
ببالغ مداه » (مدلتون)

الثقل ، وترأب بمطفها وحدها
صدره المصدوع
كنت ذات يوم أهني
صديقا تجمعت حوله أسرة
موفورة الصحة حمة النشاط
جمعت بين أفرادها أقوى

أواصر المحبة ، فقال لي متحمسا : « ما أستطيع أن
أتمنى لك نصيبا في الحياة خيرا من أن تكون لك زوج
وبنون ، بقاسونك في يسرك السراء ، ويكونون في
عسرك عزراك وعواك على الضراء »

وهذا حق ، فقد رأيت الزوج الذي يتردى
في مهاوى البؤس أقرب نهوضا من سقطته وأقدر
على استعادة مكانته من الأعزب الوحيد . ويرجع
بعض الفضل في ذلك إلى أن لدى الزوج دافعا
أقوى على العمل هو حرصه على القيام بمطالب
أعزائه ضعيفي الحيلة الذين يعتمدون عليه في سد
حاجاتهم وحفظ حياتهم ، إلا أن الفضل الأكبر في
ذلك يرجع إلى أن ما يلقى الزوج في داره من عطف
ومودة يخفف من همه ويزيل من حزنه ، ويجدد
نشاطه ويذكر ملكاته ؛ هذا إلى أنه لا يفقد الثقة
بنفسه ولا يهون لديه قدره حين يرى أنه برغم ما يحيط
به من سواد وبرغم ما يصادف خارج داره من هوان
ما يرح يترفع في بيته عرش مملكة صغيرة من
المحبة والوداد . بيد أن الأعزب يكون في بؤسه

نفسه تستنهض المرأة وتستثير قواها ، وتبث فيها
من البسالة والسوء ما يباغ الذروة في بعض الأحيان .
وليس أوقع في النفس من رؤية امرأة رقيقة ناعمة
كانت أيام اليسر والنعيم عنوان الضعف وقلة الحول ،
وإذا بها تسمو بإدراكها فجأة فتصير سند الرجل
ومفرج كربته أيام بؤسه وخلال محنته ، وليس
أروع من رؤيتها تصمد لمواطف البؤس الجاثمة
رابطة الجأش ثابتة الجنان

تألف السكرمة بأوراقها النصيرة حول السندياته
مستعينة بها على بلوغ شمع الشمس فتظل معتمدة
عليها وتلك موكلتها بها ، حتى إذا ما زالت بالسندياته
صاعدة فزقتها حنت السكرمة عليها بمساليحها الرفيعة
المطوف تضم بها أغصانها الممزقة وأنسجت المشقة ،
كذلك حال المرأة تعول على الرجل وتكبل أمرها
اليه ، فلا تعدو أن تكون زينة بيته وحلية أنسه ، فإذا
ما انقضت عليه البأساء بضربة من ضرباتها الهوج
شاء لطف الله في قضائه أن يجعل منها موثله وعزائه
فترعى نفسه المضطربة بحنائها ، وتحتمل برفق رأسه

« مضاربات » واسمة النطاق . فلم يحض على زواجه كثير حتى فاجأته المآسى ترى فمصفت بما له . وفي لحظة وجد نفسه قد انحدر الى هوة الفاقة ، فظل وقتاً ما يخفى في نفسه حقيقة ما آل إليه أمره . وقد شحب وجهه ، وتحطم قلبه ، وأصبحت حياته كرباً دائماً لا يريم . ومما زاد في كربيه وجمله غير الاحتمال على نفسه اضطراره أن يتكاف الابتسام والهاشاشة أمام زوجته ، إذ أنه لم يكن يقوى على ازعاجها بالافضاء إليها بحلية أمره ، وحقيقة خطبه . بيد أنها على رغم ذلك رأت بعين الحب التي لا تغفل أنه لم يكن على ما تحب . فلاحظت نظراته الحائرة وزفراته العميقة ولم تحدها محاولاته الفاشلة في الظهور بمظهر السرور ، وحاولت جهده ما ملكت من روح صرح أن ترفه عنه ، فأحاطته بكل ما وسعها من رقيق العناية ، ورقيق الملاطفة ، عساها تنفاج في رد السرور الى نفسه وإعادة النبطة الى قلبه ، فأخفق مسماها ولم تنفاج إلا في دفع السهم مدى جديد في صميم فؤاده . فكما رآها أحق بأن يزيد لها حبا ، زادت نفسه كرباً ، وأمضت التفكير فيما سيجلبه إليها من الشقاء والحُرمان عما قريب . ودار بخلد أنه لن يحظى إلا القليل حتى يفارق الغناء شفتيها ويبارح الوميض عينيها ، ويرزح قلبها الحاسق بين جنتيها ، مثل قلبه ، تحت عبء هموم الحياة وأرزائها وأخيراً جاء في ذات يوم وروى لى حقيقة حاله وكل ما انتهى إليه أمره بالهجة من أعرق اللجج بأمساً ، وأشدّها بؤساً . فلما وقفت منه على جملة حاله سأله : « أو تعرف زوجك ذلك كله ؟ » فصاح بي وقد خنفته المبرات : « بالله ألا ترجى فتشفق على ، ولا تذكر شيئاً عن زوجي ، فان التفكير فيها هو الذي يكاد يفقدني صوابي »

فقلت له : « ولم الكتمان ؟ ولا مناص من

عرضة لأن يهمل شأنه ويتلف نفسه ، إذ يخيل اليه أنه وحيد متروك ، سيحل بقلبه من البوار مثل ما يحل بالدار المهجورة حين يموزها التزبل المأمول تميد إلى فكركى تلك الخواطر ذكرى قصة من قصص الحياة الزوجية شهدتها بنفسى ، فقد تزوج صديق ليلى من فتاة جميلة متهذبة شبت وسط الحياة الجديدة وشغفت بأعاطها الطريفة وأزيائها المستحدثة . لم تكن ذات ثراء ، إلا أن زوجها كان في بسطة من العيش ؛ وكان يروقه أن يتيح لها التمتع بمجاراة كل طريف والتحلّى بكل ما يضي على المرأة غلالة السحر والفتنة من جميل الزى ، ونفيس الحلى . وكان يقول : « إن حياتها ستكون قصة من قصص عبقر »

كان خيالياً يميل إلى الجد والرصانة في حين كانت هي مريحة طروباً ، فكان لا متراجهما ائتلاف شجى النعم عذب الألحان . ولطالما شهدت عن كذب ذلك الهيام الصامت الذى كانت تفيض به نظراته إليها ، وهما يجلسان بين الرفاق . وكنت أرى نظراته تلك تبعث في نفسها الهجة والسرور كما كنت أراها تنجبه ببصرها إليه وسط التهليل والاعجاب ، وكأنها لا تبحث عن مبتغاها من الاستحسان والقبول إلا عنده . ولقد كانت حين تنسكى على ذراعه يلوح جمال قوامها الانثوى رائماً في تباينه مع طول قامته وبأدى رجولته ؛ وكان يبدو الاستسلام ويتدفق الحب في نظراتها إليه مما كان يبعث فيه الزهو بها والحذب عليها ، وكأنه ما شغف بهذا الحمل الوديع إلا للضعفه وقلة حوله . وهكذا مضيا في طريق هذا الزواج المبكر والاختيار الموفق إلى حياة زوجية تحفها الورود والرياحين مالمكين فيها من أزمنة النعم ومقومات السعادة ، واحتمالات الهناء ما لم يتج اغيرها من الأزواج وشاء القدر أن يقامر صديق بما له في

« كيف تكتم الأمر عنها في حين أن
الراجب أن تعلم به لتستطيع أن تمد المدة لهذا
التغير الذي طرأ على معيشتك ، إذ من الواجب
عليك أن تغير نظام حياتك ؟ فقلت وجهه سحابة
من الغم لم تخف على فاسترسلت أقول : « كلا
لا نجمل لذلك سبيلاً إلى قلبك ، ولا تر فيه مدعاة
لإبلام نفسك ، فإني واثق أنك لم نجمل سعادتك
في يوم من الأيام رهينة المظاهر الخارجية . ولا زال
لك أصدقاء حميمون لا ينقصك في نظرهم أن يقل
روني دارك ، ثم إني واثق أنك لست بحاجة إلى
قصر منيف حتى تسعد مع ماري »

فصاح مضطرباً متأثراً : « اني لأستطيع أن أسعد
معيها في كوخ وأن أتمدد معها إلى الفاقة وأهوى إلى
الخصب ، أستطيع ، أستطيع باركها الله ، باركها
الله » صاح بذلك وقد غمره سيل من الأسى والشجن
فقلت له وقد تقدمت إليه وأمسكت يده بحرارة :
« صدقني يا أخي وثق أنها سوف تكون كما كانت
وخيراً مما كانت . واسوف يكون من دواعي فخارها
ودليلاً على انتصارها وسبباً في استئثاره كامن قواها
واستجاشة مدخر عواطفها أن تبرهن فرحة طروباً
على أنها إذ أحببتك أحببتك لذاتك ، فإن في قلب
كل امرأة قبساً من نار علوية يظل كامناً ما أشرق
نور أيام السراء فما يفتشر ضياؤه الاساعة يخيم ظلام
الخطوب . وما يدري الرجل حقيقة زوجته وأنهاراحة
صدره والملك الكريم الذي يحوم حوله حتى يسلمك
بها غمار الحياة وتصهرها المحن »

لقد كان في صدق تعبيرى وبلاغة لهجتي ودقة
تصويرى ما أفر فكمرة الثائر وهذا خاطره المروع ؛
وكنت أعرف من أحاول اقناعه ، فتأبست الضرب
على الوتر الذي أشجاء وانتهيت باقناعه بالذهاب
إلى بيته والافضاء إلى زوجته بما أحزنه وناء به قلبه

أن تعرف جانية الأمر عاجلاً أو آجلاً فإن تملك
كتمانها عنها طويلاً ، وعندما تظهر لها الحقيقة يوماً ما
سوف يكون الخبر أشد وقعاً على نفسها ، وأكثر
إيلاماً لها مما لو كاشفتها به ، فإن لهجة الحبيب تخفف
وقع الخبر الشديد ؛ هذا إلى أنك تحرم نفسك بهذا
الكتمان راحة عطفها فضلاً عن أنك بتصرفك هذا
تخاطر بالرباط الذي يوثق بين القلوب ، ألا وهو تبادل
الفكر حرراً ، وبث الشعور صريحاً . ولا بد من أن
تكتشف عاجلاً أن أمراً يقلق بالك ويكربك ، وليس
طلى الأسرار في النفس مما يرضى الحبيب ، فتشعر
عندئذ أنك تبخسها حقها وتنتقص قدرها ، ويسوءها
أن ترى أحزانك أنت يامن تحب قد أخفيت عنها »
« أوه ! ولكن ألا تتصور يا صديقي أثر تلك
الضربة التي سأطيح بها كل آمالها وأمانها ؟ ألا
ترى أنني سأهوى بقاياها إلى الثرى حين أخبرها أن
زوجها قد أصبح فقيراً ، وأن عليها أن تطرح عنها
مطارف الحياة وزينتها ، وتترك مباحج المجتمعات
وفتنها . وتزوى مني في عالم الفقر المدقع والظلام
الطبق ! كيف أخبرها أنني قد هبطت بها من
ذلك الجو الذي تحاق فيه ، والذي كان في وسعها
لولا ما حل بي أن تظل محاطة فيه في اشراق دائم
نوراً الكلى عين ، وهجة الكلى قلب ، كيف تحتمل
الفاقة والمترية ، وقد شبت في أعطف الدسر ؟ كيف
نحتمل الانزواء والاهمال وقد كانت معبود المنتديات ؟
أواه إن ذلك سيحطم قلبها . إن ذلك سيحطم قلبها
رأيتك بليناً في جزعه فتركته يتدلق في حديثه
فالحديث يسرى عن نفس المحزون ، ويفرج كربة
المكروب . فلما هدأت ثورته ، ورأيت أنه ارتد إلى هدوئه
واستسلم للسكابة عدت إلى حديثي في رفق ولين
وأخذت أحثه على المبادرة بالافضاء إلى زوجته بذات نفسه
وحقيقة أمره فأوماً بالقبول ؛ بيد أنه كان جدمحزون

ولا بد لي من أن أعترف بأنني على رغم كل ما قلت كنت قلقاً غير مطمئن إلى النتيجة، إذ من يستطيع أن يعتمد على جلد من عاشت كل حياتها بين اللهو والسرور؟ أليس من المحتمل أن تتمرد تلك النفس الطروب عند ما ترى ذلك المنحدر المظلم الذي شقه البؤس فجأة أمامها؟ أو ليس من المحتمل أن تظل روحها الرحة متعلقة بالآفاق المشرقة الخلابية التي ظلت حتى الساعة تسعد بها؟ وما أمر الضيق بعد السمة لمن أحبوا مستحدث الأزياء وطريف الملاهي، فإن العاقبة لتجلب لهم من الآلام المبرحة ما لا يحسه غيرهم من الناس. وبحمل القول أنني لم أستطع أن ألقى صديقي في الغد إلا وأنا مشفق مضطرب وكان قد أفضى إليها بدخيلة نفسه وحقيقة خطبه

« وكيف تلقت الخبر؟ »

« كالملك، حتى السكائم كانت فيه راحة فكرها، فطوقت عنقي بذراعها وسألتني: أهذا كل ما أحزنك طيلة هذه الفترة الأخيرة؟ » ثم أضاف إلى ذلك قوله « إلا أن الفتاة المسكينة لا تستطيع أن تتبين ما لا بد لنا من ملاقاته من تبدل حال بحال. أنها لا تعرف الفقر إلا تصورا مما قرأت عنه في شعر الشعراء، لا يوجد إلا محاطاً بالحلب مقروناً بالهوى، أنها لم تشعر بعد بأنها فقدنا شيئاً ما إذ لم تعان بمسدة الحرمان مما ألفت من الناعم والطارف، ولكن التجربة الحقيقية ستكون عندما تصطدم بالوقائع وتعاني وضيق المشاغل وتافه الحاجات ورقة الحال وسوء المآل »

فقلت له: « أما وقد انتهيت من مكاشفتها وتلك هي المهمة الشاقة فانك ستجد عما قريب سرّاً خفياً يبدل أمامك الحياة فتراها تسير بك من حال إلى حال أنها وأسمد. نعم إن الكشف عن الخبر المشؤم قد يؤلم إلا أنه ألم ساعة يزول، وأما حرصك على السكتمان فهو السكرب الذي لا ينتهي

والذي تصلي ناره كل حين توجسا من كشف المستور. وليست متاعب الفقر شيئاً إلى جانب متاعب الادعاء الكاذب وتكاليف الكبرياء والتطلع للعجيب الخاوي. إن محاولة المحافظة على المظهر الفارغ هي التي يجب أن تضع لها حداً؛ فكن شجاعاً في قبول مظهر الفقر فانك بذلك تجرد العاقبة من سلاحها البتار وعذابها الأليم » فوجدت من ليسلي تمام الاستعداد لقبول هذه الفكرة إذ لم يكن فيه ميل للادعاء الكاذب أوحب المظهر الفارغ، أما زوجه فحسبنا ما أظهرت من ميل للسير وفق مقتضيات ما آل إليه حاله

جاءني ذات مساء بعد ذلك بأيام، وبعد أن تخلى عن منزله واتخذ لنفسه كوخاً صغيراً في القرية على مسافة أميال من المدينة، وكان قد شغل طيلة يومه في إعداد أثاثه، وما كانت تلك الدار الجديدة لتتطلب من الأدوات إلا القليل البسيط، وكان قد باع الأثاث الفاخر أثاث منزله السابق إلا أنه أبقى قيثارة زوجته وقال: إنه احتفظ به لأنه قريب الصلة بها متصل بأقصوصة هواهما، وأنه يذكره ببضعة لحظات من أحلى لحظات هيامهما، حين كان يجلس إلى القيثارة ويستمتع إلى صوتها الشجي الحنون. فما وسمعي إلا الابتسام لما ينطوى عليه هذا الزوج الليم من قروسية ووفاء. لقد كان ذاهباً إلى الكوخ حيث ترك زوجته تقوم بأعداده، ولما كنت مشوقاً إلى تتبع قصة هذه الأسرة وكان المساء جليلاً فقد اقترحت أن أضيئه. ولقد كان متعباً لما بذل في يومه من جهد فسار وقد انتابته نوبة من التفكير الحزين. وأخيراً صعد من بين شفتيه زفرة عميقة وقال: « مسكينة ماري! » فقلت له: « وماذا لها؟ هل أصابها شيء؟ » فقال لي: « وقد ألقى إلى بنظرة ملول: « كثير عليها أن تنحدر إلى هذا المكان الوضيع، وأن يحبس في هذا الكوخ الشنيع، وأن تضطر إلى معاناة

الأفنان ، وقد ظهر حول الباب وفي مدخله
الحضور عديد من أواني الزهر نسقت تنسيقاً
فيه سلامة الذوق ، وانفرج الباب الخارجى الصغير
عن ممر شق بين الأعشاب يؤدى إلى الباب الداخلى
فما كدنا نبغاه حتى سمعنا نغماً موسيقياً ؛ فأمسك ليسلى
بيدى فوقفنا نستمع إذ كان الصوت صوت مارى تنغى
فى بساطة رائحة مقطوعة من المقطوعات التى يحبها
شمرت بيد ليسلى تضطرب فى ذراعى ووجدته
يتقدم ليستطيع أن يستمع بوضوح ؛ فكان لوقع
أقدامه صوت على المرمر المصوف ؛ فأطل من النافذة
وجه مشرق جميل ما لبث أن اختفى وسمعنا خطوات
رفيقة ، وأقبلت مارى للقينا مرتدية ثوباً ريفياً
جديلاً أبيض اللون ، وقد وضعت فى طيات شعرها
الجميل بضع زهرات برية ، وقد علت النظارة
والرواء وجهها وتوردت وجنتاها وأشرق بالابتسام
محياها ، فما رأيتها قط أكثر منها ابتساماً مما بدت
عليه فى تلك اللحظة ، فهتفت : « عزيزى جورج ،
كم أنا مسرورة بقدومك ! فاقط طال انتظارى إليك ،
واقط كررت إلى المصطف أبحث عنك . لقد أعددت
المائدة تحت دوحة جميلة خلف الكوخ ، وجمعت لك
بعضاً من أطيب ثمار الفرولا التى تحبها ، ولدينا إلى
جانب ذلك قشدة ممتازة . إن كل ما هنا عذب وهادئ »
ثم وضعت يدها فى يده ونظرت إليه منشرحة
وقالت : « آه ! سنكون سيعدين كل السعادة »
فغلب ليسلى على أمره ، وضعاها إلى صدره وطوقها
بذراعه وقبلها ثم قبلها ولم يستطع الكلام ، وغلبته
الدموع فلأت عينيه . ولطالما أكد لي أنه رغم
ما أصابه بعد ذلك من نغمى وبرغم ما انتهى إليه من
خير وسعادة ، فإنه لم يشعر قط بأعذب ولا أسعد من
تلك اللحظة التى غمره فيها من الغبطة والسعادة ما لا
سبيل إلى وصفه ولا حد لجماله . حسين محمد طاهر

مشقة العمل فى هذا المسكن الشمس «
« هل تألت من هذا الانقلاب ؟ »
« تألت أكلاً ، لم تبارحها عذوبة روحها وصفاء
نفسها حتى ليبدو عليها أنها أكثر مرحاً وسروراً
مما كانت عليه فى أى وقت آخر . ولقد كانت كلها
حباً ، وكلها عذوبة ورقة ؛ فكانت راحة قلبى
وبهجة نفسى » فقلت متعجباً : « يالها من فتاة
تستحق الإعجاب ! أو تدعى أنك فقير يا صديق وأنت
لم تكن أكثر غنى منك اليوم ، إذ لم تنكشف لك
قبل اليوم جوانب تلك العظيمة التى لاحد لها
والتي أنعم الله عليك بها فى شخص هذه المرأة »
« آه ! والكنى لا أستطيع أن أستريح
يا صديقى حتى يمر بسلام أثر اللقاء الأول لهذا
الكوخ ؛ فهذه أول مرة تصطدم فيها بالواقع
وتجرب فيها الحقيقة المرة ، واليوم فقط تاج مسكننا
وضيماً تكبد فيه طيلة يومها فى إعداد حقير لوازمه ؛
واليوم فقط تذوق متاع الأعمال المنزلية ؛ واليوم
فقط ترى نفسها وقد حرمت المطارف ، وفقدت
المتع ، وفارقتها النعيم ، وذهبت عنها الراحة ، ولعلها
تجلس الساعة متعبة كثيفة تفكر فى أمر ذلك الفقر
المقبل الذى ستصلى ناره وتلقى أذاه » ، ولقد كان فيما
قاله شيئاً من الصدق وكثيراً من الاحتمال لم أستطع
أن أمارى فيه ، فسرنا صامتين
انثنينا من الطريق العام إلى منعطف ضيق
ألقت عليه أشجار الغاب ظلاً كثيفاً أوضح عزلة
ذلك المسكن ، وقد ظهر المنزل قبالتنا تبدو بساطته
خليقة باعجاب أشد الشعراء شغفاً بالريف وإيثاراً
للإساطة ، وإلى جانب تلك البساطة تجلى جمال
النظر الريفى ، إذ امتدت على جانب من الكوخ
كرمة برية غمرته بكثيف من ناضر الأوراق كما ألقت
عليه الأشجار الشجراء فينان الأغصان ورشيق